

## سياحة روحية إلى آثوس جبل الأرثوذكسية المقدس ومعقل الحياة الرهبانية في اليونان

الأب سليم دكاش اليسوعي<sup>٥</sup>

عندما أسرّ صديقي الأستاذ أمين خوري في أذني أن الحلم الذي يراوده منذ زمن بعيد هو زيارة جبل آثوس في اليونان<sup>(١)</sup>، قلت في نفسي: وهل يمكن أن نقتحم ذلك الجيل - الأسطورة، وأن تتم زيارة ذلك المكان البعيد الذي يتسوّر بالرهبة ويتزّثر بالتقاليد؟ وهل يمكن دخول أرض الحياة الرهبانية التي اعتنقها الرجال، والرجال وحدهم، منذ ما يقارب العشرة أجيال؟ وهل نستطيع التغلّب على مختلف المشقّات والمصاعب لنيل الإذن بالدخول؟ بعد الاتّصالات الحثيثة والمضنية بأصدقاء في مدينة تسالونكي وبعض المتوحّدين القاطنين في الجبل المقدّس، وكذلك بفضل الدعم الآتي من الصلوات، أتى الفرج وانفجرت الأسارير، وحلّ النبا بأنّ الأمور ترتّبت وأنّ الرحلة إلى آثوس عبر اليونان تقرّرت في الثاني

(٥) رئيس تحرير المشرق.

(١) رحلة ووحية تمت بين الثالث عشر والثاني والعشرين من شهر آب ٢٠٠٠ إلى اليونان، في محطات متعدّدة. وقد ضمت إلى الأستاذ الصديق أمين خوري، الأستاذ نجيب نعيمه، ابن ابن أخي ناسك الشخروب الأديب الكبير ميخائيل نعيمه، وكاتب هذه المقالة. وكنا قد قمنا معاً نحن الثلاثة برحلة إلى بلاد كِبُلُوقِيَة في تركيا وعلنا منها بذكريات لا تُنسى (راجع مجلّة المشرق، ٧٢، ص ١٥٥-١٧٨).

عشر من شهر آب من العام ٢٠١٠، سنة اليوبيل العظيم، سنة الانتقال من قرن إلى آخر. اليونان، بلد التقاليد البيزنطي الأرثوذكسي المسيحي منذ أجيال، هي وجهتنا الرئيسية. محطتنا الرئيسة الأولى هي مدينة تسالونيك في الشمال، وجبل آتوس هو محجّتنا الروحية وقبلتنا الرهبانية، ومحطتنا الثالثة هي منطقة أديار متيورا (Météora)، تلك الأديار المُثبتة على أنوف الجبال، إلى أن تقوم بزيارة مدينة دلفي وهيكلها الوثني، والوصول إلى دير هوسوس أوزيوس على مقربة من أثينا، عاصمة اليونان.

### تسالونيك، مدينة القديس بولس

هذه المدينة العريقة بتاريخها وأثارها، الشاهدة على عظمة الإسكندر الكبير هي عاصمة منطقة مقدونيا وثانية مدن اليونان المهمة. في هذه المدينة أعلن القديس بولس البشري في السنة ٥٠ وأُتيح له الوقت الكافي ليُعمل في صنعة<sup>(٢)</sup>، إلا أن اليهود ثارت ثائرتهم عليه ورحلوه إلى خارج المدينة مع المبشرين الذين كانوا معه. وترك بولس وراءه جماعة في أول نشأتها فقلق عليها، إذ إنَّها كانت حديثة الإيمان، وقد كتب لها رسالتين لثبتيها في الإيمان وحثها على المثابرة. ونالت تسالونيك من الاهتمام ما نالته على يد الأباطرة الرومان والبيزنطيين، فتحوّلت إلى مدينة الأباطور الروماني غاليريوس الذي بنى فيها قصرًا وقوس نصر يحملان اسمه حتى اليوم، وإلى عاصمة ثانوية تكثر فيها الكنائس والزخارف والموزايك والنسوم، وكذلك برزت في تسالونيك علامات الحضور التركي: بقي الحي العثماني شاهدًا على ذلك الاحتلال الذي دام أكثر من أربعة قرون.

وصلنا إلى تسالونيك وقت الظهيرة، وبعد هنيئة في الفندق المضياف، أخذنا الطريق إلى كنيسة القديس ديمتريوس العريقة بين كنائس المدينة. فبحسب ما يقول التقليد، سُيِّدت الكنيسة فوق الحمام الروماني الذي استشهد فيه القديس حوالي السنة ٣٠٣م. والواقع أن المؤمنين

(٢) راجع: رسالة بولس الأولى إلى أهل تسالونيك، الفصل الثاني، آية ٩.

استخدموا في بناء المقام ما توفر لهم من حجارة ويلاط ورخام من الحمّات الرومانية. ولقد التهم حريق هائل الكنيسة، بحيث فقدت الكثير من جداريات الموزايك، ولقد استمرّت أعمال الترميم حتى السنة ١٩٤٩، إذ تمّ اكتشاف قبر الشهيد تحت قاعدة الكنيسة، وهو قبرٌ كان قد تحوّل إلى مزار لأجيال عدّة قبل القرن الخامس عشر.

ومن كنيسة القديس ديمتريوس حيث غصنا في أعماق التراث البيزنطي، انتقلنا إلى كنيسة القديسة صوفيا التي لا تقلُّ شأنًا عن الأولى. فهذه الكنيسة مكرّسة للحكمة الإلهية، مثل زميلتها في القسطنطينية، وهي كنيسة ذات قبب متعدّدة، حُفِظت في سقوفها رسوم موزايك أحدها من القرن التاسع يمثّل صعود المسيح إلى السماء، والثاني وهو شهير، يمثّل مريم العذراء حاملة الطفل من القرن الثاني عشر. وتكثر الموزايك في هذه الكنيسة ومنها ما تمثّل الأمبراطور قسطنطين ووالدته الأمبراطورة إيرانه وأسقف تسالونيكي، البارّ ثاوفيلوس. وبعدها، زيارة بُرج المدينة القديم، ويسمّى البرج الأبيض وقد بناه الأتراك في القرن السادس عشر لمراقبة الشاطئ، إلّا أنّه تحوّل إلى سجن سهل منه الفتك بالمعارضين غربًا في خليج المدينة.

وبعد أن أدينا النجّة لنصب الإسكندر الكبير المقدوني، المتأثر على حصانه لخوض معركة فتوحات جديدة، صعدنا الطريق باتجاه المدينة العليا، فاستوقفنا من ناحية اليمين مبنى دائري كبير علمنا عند زيارته أنّه كان مدفن الأمبراطور غاليريوس، وقد تحوّل بعد الحقبة الرومانية إلى كنيسة القديس جاورجيوس. وما يشار إليه في هذه الكنيسة هو مجموعة الموزايك المدجّبة، المؤلّفة من رسم المسيح الضابط الكلّ، وقد نال الخرابُ منه كثيرًا، ورسوم الملائكة والرمل، وصعود المسيح إلى السماء، والنباتات والحيوانات المختلفة. ولا ننسى الإشارة إلى الكنيسة الجميلة تلك، ذات القبب المتعدّدة الأحجام، وهي تحمل اسم القديس بندليمون وهي من القرن الرابع عشر، ففيها يحلو التأمل الهادئ لما تثير في النفس من الخشوع والاتضاع.

ونصل إلى المدينة العليا، فتواري عن الأنظار زحمة الأسواق التجارية، وتلوح في الأفق، شيئاً فشيئاً، أسوار المدينة التي بناها الأباطرة البيزنطيون، ثم قوى متونها السلاطين الأتراك، بحيث إن المدينة كانت حتى السنة ١٨٦٩ مسورة من كل الاتجاهات ولها أبواب لدخولها. فعلى مقربة من السور، يمكن زيارة كنيسة القديس داود وهي من نهاية القرن الخامس الميلادي، ولا تزال تلفت أنظار المهندسين المتخصصين بفن العمارة البيزنطية، إذ إن هذه الكنيسة شيدت بشكل صليب تعلوه قبة عظيمة، رسم عليها موزايك المسيح الجالس على قوس قزح، يحيط به الإنجيليون الأربعة والأنبياء. وإذا كان هذا الرسم هو من القرن السادس، فإن بقية الرسوم التي تزين الجدران هي من القرن الثاني عشر، وتمثل العماد وميلاد المسيح.

أما ما استوقفنا في ختام زيارتنا الأماكن المقدسة في تسالونيكي، فهو ذلك المزار الواقع ضمن جدران المجمع المسكوني للدراسات اللاهوتية إلى جانب الأسوار القديمة<sup>(٣)</sup>. في ذلك المزار - الكنيسة الوضيعة، شاهدنا تلك الصخرة التي اتكأ عليها القديس بولس في أثناء تبشيره وتأسيسه كنيسة تسالونيكي. ومنذ القرن الأول، حفظ التقليد الكنسي في تسالونيكي ذلك المكان ذكراً للمؤمنين، يؤمنونه من كل حذب وصبوب للصلاة قرب صخرة بولس التي اتكأت عليها اليوم صورته. وتحلوا الإقامة في ذلك المكان للصلاة مع جماعة المؤمنين المرتلين صلاة المساء، وللدخول في عالم ائشهادة للبشرى التي كُتبت بولس وغيره من الرسل والتلاميذ الغالي والتفيس لإعلان الحق والقيامة.

ونجد في السير مرة أخرى صوب ساحة المدينة الرئيسية حيث انتصب تمثال الفيلسوف اليوناني أرسطو (من القرن الرابع قبل الميلاد)<sup>(٤)</sup>

(٣) هو كناية عن كنيّة لاهوت تابعة للبطريرك المسكوني الجالس على كرسي القبطية.

(٤) أرسطو أو أرسطاطاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق.م.) - فيلسوف يوناني من كبار مفكري =

معلّمًا ما توقّر له من الحكمة وما وراء الطبيعة. وقد علمنا لاحقًا أنّ أرسطو هو من موألد بلدة غير بعيدة عن تسالونيكى هي ستاجيرا القديمة وستأفرو الحديثة. وهكذا فإنّ تسالونيكى، بمعالمها وكنائسها ائفدائمة وتمائيلها، تشهد على تاريخ عريق وعلى تقاليد باقية راسخة. ولا عجب أن يكون جبل آئوس هو الأسمى بين التقاليد، وقد بدأنا نأشخص النظر إليه كى نرى ما يتظرنا فيه من شهادات التاريخ.

### الجبل المقدّس، جبل الحياة الرهبانية الأرثوذكسية

صبيحة الثالث عشر من شهر آب، أعددنا العدة للسفر إلى آئوس، جنوب مدينة تسالونيكى، فانتقلنا بالسيارة إلى مدينة أورانبوليس (مدينة السماء) التى على الحاجّ إلى الجبل المقدّس أن يتخذها محطة أخيرة له قبل أن يركب الباخرة - العبارة التى تقلّه إلى ميناء دافنى (Daphni) الرئيسى على ساحل جبل آئوس. فالطريق التى سلكتها السيارة من تسالونيكى إلى أورانبوليس فيها الكثير من المناظر الخلابة بين قرية وأخرى، وخصوصًا فى تلك الخلجان التى تتجمّع فيها المياه ذات اللون الأزرق اللازوردى، كخليج ستراتونيون. والمنطقة التى مررنا بها والتى يقع فيها آئوس هي بلاد خلفيدقية المكوّنة من ثلاث أصابع طويلة ممتدّة فى بحر إيجه. الإصبع الأولى هي أرخبيل كاساندرا الأقرب إلى تسالونيكى، والإصبع الثانية هي سيتونيا، والثالثة هي أرخبيل جبل آئوس المطلّ على البحر الفاصل بين اليونان وتركيا. نصل إلى أورانبوليس فنستعجل إلى مقرّ جزازات السفر إلى جمهورية جبل آئوس، حيث لا بدّ للمسافر إليها، أيونانيًا كان أم أجنبيًا أن يحصل على تأشيرة دخول تخوّله زيارة المكان المقدّس.

ففى نظر السلطات اليونانية والسلطات الدينية فى الجبل، أنّ آئوس ليس هدفًا سياحيًا، ولا يدخله للزيارة أو المييت فى واحد من أدياره

---

=البشرية، سمي بالمعلّم الأزل، من أهمّ مؤلّفاته كتاب ما بعد الطبيعة والسياسة والأخلاق.

العشرين، إلا أولئك الذين يشدون العزلة الروحية أو التعرف على الروحانية الرهبانية الأرثوذكسية أو الفن البيزنطي، حيث إن الجبل يعتبر بحق مركز الأرثوذكسية الروحية الحي. لذلك، لا تتجاوز تأشيرات الدخول عدد العشرين يومًا للأجانب، وربما المئة تأشيرة لأهل اليونان. إذ لا بد من المحافظة على الحد المعقول من الهدوء في هذه البقعة التي لا تتجاوز مساحتها الـ ٣٦٠ كيلومترًا مربعًا، والتي يقطنها حاليًا أكثر من ألفي راهب في عشرين ديرًا، وأقل من ألفي علماني يعملون في الاهتمام بالغابات والخشب وترميم المباني القديمة. وقد خصّصت الأسرة الأوروبية موازنة تتجاوز الـ الخمس مئة مليون دولار للإصلاح والترميم، بعد أن تم إعلان الجبل المقدس وأدياره جزءًا من إرث أوروبا الحضاري. والواقع كما رأينا بأم العين أنّ ورشة الإصلاح والترميم والبناء دخلت كلّ دير، بعد أن كانت الأبنية مهددة بالسقوط والخراب، من جزاء قلة الواردات والمساعدات.

وبعد أن اجتهد الأستاذ الرفيق أمين في الحصول على التأشيرات - وتأشيرة الأميركيّ ثمنها أعلى من ثمن تأشيرة اللبناني «الفقير» على حدّ قول موظف الجمارك - انطلقنا سريعًا إلى الباخرة - العبارة التي تقوم برحلة وحيدة يوميًا بين مرفأَي أورانوبوليس ودقني، وتُقلّ على متنها، على ما شاهدنا، بضع مئات من المسافرين، جلّهم من العمّال والزوّار والتجار والرهبان، لا سيّما القنّاز الأسود والمعمّريّ قبعاتهم البسيطة المميّزة. وإلى هؤلاء الناس، أقلّت الباخرة عددًا من السيّارات والشاحنات ذات الأحجام المختلفة، بعضًا منها يحمل الموادّ الغذائية أو الأدوات والآليات الضرورية لسبل العيش هنالك. لا مجال لدخول آثوس إلا عبر البحر فقط، إذ إنّ لا ممرّ يصل اليونان بالجبل المقدّس عن طريق البرّ، لكي تتمّ المحافظة على حياة التوحّد والانعزال بوجه تامّ وجذريّ. وتنتقل السفينة في العاشرة صباحًا باتجاه مرفأ دقني تمخر عباب الأزرق النقيّ، فتخفي وراءنا مدينة أورانوبوليس وبرجها القديم الذي كان تابعًا لدير فاثويايدي من أعمال آثوس، وتزول شيئًا فشيئًا مظاهر المدينة وضواؤها، لتحلّ

مكانها الطبيعة البرية الساكنة الساكنة المكسوة بالغابات والأشجار. وما إن تقدمنا بضعة كيلومترات في بحر أثوس حتى أُطل علينا الجبل الذي أعطى اسمه الجبل المقدس (هاغيون أوروس) كما يسميه التقليد منذ القرن العاشر على أقل تقدير.

وعلى متن السفينة، التقينا أحد الزوار اليونانيين؛ الذي أخذ يشرح لنا موقع جبل أثوس عبر التاريخ وفي واقع الأرثوذكسية اليوم: «منذ القرن العاشر تحول الجبل إلى منطقة منعزلة لا يقطنها إلا الرهبان الرجال في أديرتهم وقللياتهم ومواقعهم. لا يدخل الجبل إلا الرجال الذين تجاوزت أعمارهم الثماني عشرة سنة، والذين يهتمون بما تمثله المسيحية الأرثوذكسية على صعيد الليتurgia والتراث الروحي».

«دولة الجبل المقدس يدير شؤونها مجمع مقدس تنفيذي من أربعة رهبان، ومجمع تشريعي من عشرين عضوًا يمثلون الأديرة العشرين. في هذه الدولة بقي التقليد التأملي الأرثوذكسي حيًا في الأديرة والمعابد والمناسك، وما يزيد سكان هذه الدولة هو أن يبقى هذا التقليد حيًا». وعندما عرف مخاطبنا أننا نلنا إجازة دخول (Diminiturion) لأربعة أيام، وهي إجازة تعطي حرية التحرك والتجول، قال لنا: «إن أكثرية الزائرين على متن السفينة بحوزتهم تأشيرات دخول أديرة معينة فقط، ولا يستطيعون التنقل من دير إلى آخر، إذ إن لكل دير منطقته ولها حدود». مما يعني أنه أراد القول أننا محظوظون في أن نكون بحوزتنا تأشيرات تخولنا حرية الحركة.

وأضاف محدثنا قائلًا: «ما تجدر الإشارة إليه هو أن الحياة الرهبانية في الجبل المقدس هي على ما يبدو، في حالة ازدهار بعد حالة اندثار أصابها بعد الحرب العالمية الثانية وحتى منتصف الستينات. فسكان الجبل كانوا قد تجاوزوا العشرين ألفًا في مطلع القرن العشرين، حيث إن الدير الروسي كان يقطنه ما يقارب الألفي راهب، إلى أن العدد انخفض إلى خمس مئة راهب في نهاية الخمسينات، وهو الآن في حالة تصاعدية،

إذ إن عدد الرهبان يقدر انيوم بما يناهز الألفي راهب في أديار الجبل وملحقاتها كافة. وذلك يعود إلى النهضة التي شهدتها الكنيسة الأرثوذكسية في مختلف أنحاء المعمورة، وهي نهضة تشدد من ناحية على الوعي الروحي والانتماء إلى التراث البيزنطي بمختلف أشكاله، ومن أخرى على العودة إلى ينبع الإيمان بالسيد المسيح القائم من الموت سيلاً إلى الخلاص».

وبعد ساعة من الزمن، أطل علينا جبل آتوس من البعيد شامخاً بكامل هيئته، تكفل هامة التي تعلو ألفي متر عن سطح البحر غيوم بيض دلالة على أن الطقس كان جميلاً في ذلك النهار. وفجأة أخذت السفينة تخفف من سرعتها وتنحرف يساراً، ففهمنا أنها ستوقف دقائق معدودة على وصيد الشاطئ التابع لدير ذوغراتو في الجبال. والواقع أن لكل دير من أديار الجبل المقدس مرفأه وبرجه منذ الأجيال السالفة. وعندما انتقلت الباخرة إلى ميناء آخر وتوقفت على رصيفه، ظهرت لنا بوجه جلبي معالم دير آخر هو دير كونستامونيتو، وهو إلى جانب دير ذوهاريو غير البعيد عنه، نموذج عما تكون عليه أديار آتوس. فالدير تحميه أسوار عالية في الغالب وحصينة قامت بدرء أخطار القراصنة من كل حذب وصوب في القرون الوسطى. وتلتصق بالأسوار بطريقة مباشرة أبراج منيعة مهمتها إرشاد السفن ومراقبة الشاطئ ودق جرس الإنذار في حال خطر داهم. وفي الساحة التي تحميها الأسوار أبنية مشتركة للرهبان، منها للسكن والمأكل والمشرب وحفظ المياه المقدسة والمؤن. وفي هذه الساحة تقع أيضاً الكنيسة الرئيسية (الكاثوليكون) ذات القبة المتعددة الأحجام التي تحتوي على كثر الدير من الأيقونات والذخائر المقدسة، والرسم الهندسي لكنيسة الآثوسية غالباً ما يكون على شكل صليب. وحول الدير، تبدو المساحات المزروعة بالأشجار المثمرة وخصوصاً الزيتون والخضار، مما يسمح بالاكفاء الذاتي في هذا المجال، إلا أن الأديار لا تقوم بتربية الماشية. إذ إنه كما بالنسبة إلى الإنسان، يُمنع إدخال الإناث من المواشي، وكذلك يُمنع إدخال أو إنتاج الحليب ومشتقاته أو أي مادة

أخرى تُستخرج من أنثى الحيوان. إنَّ أنثى الحيوان الوحيدة المسموح بها هي الهرة، وقد اتخذ القرار بشأن إدخالها منذ بداية القرن العشرين في وقت اجتاحت فيه الأديار موجة عارمة من الجرادين التي انقضت على الغلال والبساتين فأنت على الأخضر واليابس.

وبعد أن ابتعدنا عن الأديار الأوائل المبنية على مقربة من الشاطئ، ظهر لنا تجمّع كبير من المباني التي تتوسطها كنيسة نمطية من الطراز الروسي، وقد فهمنا لاحقاً أنّ ذلك التجمّع هو دير القديس بندليمون الذي يسمي إلى التقليد الأرثوذكسي الروسي ويأتي إليه الثبّان الروس للترهب فيه على يد من سبقهم من الرهبان ذوي الأصول السلافية. ونصل إلى دفتي عند الثانية عشرة ظهرًا بعد ساعتين من الإبحار، ونترّل إلى الرصيف مع أمتعتنا ويتوجّه الركّاب إلى سيارتي نقل كبيرتين، واحدة قديمة جدًّا والثانية حديثة بعض الشيء، وقد حُثِرَ فيهما عددٌ كبير من المسافرين على السفينة التي كان عليها أن تكمل إبحارها جنوبًا لتفريغ حمولتها على أرصفة الأديار الأخرى. وننتقل من الميناء الصغير المكوّن من فندق صغير ومطعم وبضعة محلات لبيع التذكارات وبعض المواد والأدوات الضرورية ومخازن كبيرة بعض الشيء تابعة للحكومة الأثوسية صوب كاريس (Karyès) عاصمة الدولة، لنبدأ زيارتنا بعض الأديرة في الجبل المقدّس. إنَّها بداية اكتشاف عالم لا كغيره من العوالم، عالم أقرب إلى القرون الوسطى وحضارتها، وحتّى إلى ما قبل ذلك!

### من كاريس إلى الدير الكبير (Max Lavra)

وصلنا إلى البلدة الصغيرة هذه، التي لا علاقة لها، لا من قريب أو بعيد، بعوالم العالم الحديثة. كاريس، عاصمة الدولة الأثوسية، هي كناية عن شارع رئيسي بسيط، وعن تجمّع لبضعة أديار ومدارس وبعض محلات بيع التذكارات والموادّ الضرورية، وهذه الأخيرة تتمركز في شارع وحيد، اصطفت على مدخله بعض سيارات النقل التي تربط الأديرة بعضها ببعضها الآخر، لتسهيل تنقل العاملين في حقل البناء أو في صناعة

الأخشاب والمزروعات، وكذلك الزائرين الذين لا يودون السير مشياً على الأقدام. لقاءنا الأوّل في الشارع كان بالأب باولو الذي يتحدث الفرنسية بطلاقة، والذي كان يتكلم على أخ في الرهبانية نظراً إلى تقدّمه في العمر. قِيلَ بابتسامة وضيعة أن تؤخذ له صورة فوتوغرافية وتمنّى لنا إقامة مفيدة في ربوع جبل آتوس، إذ عَلِمَ أنّنا من الشرق الأدنى. ونخترق الشارع الرئيسي متأملين الجدران القديمة والقبة العتيقة، حتّى وصلنا إلى دير كوتلوموسيو (Koutloumossiu)، دير تجلّي المخلص، وقد تأسس في القرن الثامن أو التاسع الميلاديّ على ما تدلّ الدراسات التاريخية. وللدير صلات بالكنيسة الأرثوذكسية في رومانيا حيث له بعض الأراضي والممتلكات، وقد ترهّب فيه الكثير من الشبان الرومان على مرّ الأجيال. وعلى جدران الكنيسة الرئيسة (الكاثوليكون) المبنية في السنة ١٥٤٠، رسومات حقّقها رسّامو المدرسة الكريّية التي تركت آثاراً عديدة في مختلف أديرة الأرخبيل.

وطّفقتنا عائدين إلى ساحة كاريس الرئيسية ومنها انطلقت سيّارة الأجرة باتجاه الدير الأكبر والأعرق في الجبل المقدّس، ألا وهو دير ماكس لاфра الذي احتفل في السنة ١٩٦٣ بعيد تأسيسه الألفي. الطرق بين الأديرة لا زالت طرقاً ترابية لا تخلو من الرعورة، دلالة على أنّك في بلد الزهد والنسك وأعمال التتّشّف، وأنّ على الزائر أن يشارك في هذه الأعمال وأن يلبس لباس الزاهد في أثناء زيارته البلاد. وعندما طلبنا إلى سائق السيّارة اليونانيّ، بما تيسّر لنا من الكلمات اليونانية وتيسّر له من الإنكليزية، أن يمرّج على دير فاتوبايدي الشهير، أجاب بأنّ لا وقت لذلك وبأنّ هذا الدير الاستقرطيّ لا يستقبل الزائرين بسهولة. وبتقدّم شيئاً فشيئاً نحو جنوب الأرخبيل فنستقرّ عند بوّابة دير إيغرون الذي أسّسه البارّ يوحنا تورنيكيوس وراهبان من جورجيا في القرن العاشر، على اسم رقاد العذراء. الكاثوليكون مبنّيّ على شكل صليب يونانيّ يحفظ بيلاط مرصوف من القرن الحادي عشر، وعلى رسومات من القرنين السادس عشر والتاسع عشر، وعلى أيقونة العذراء الكليّة القداسة (پاناغيا).

والعذراء مريم أم الله هي المرأة الوحيدة التي لها حضورٌ في جبل أثلوس، لا بل إنها الشقيقة المكرّمة في كلّ دير من أدياره. ونظرًا إلى أهميّة تعدّد أيقونات العذراء مريم، نورد لائحة بأهمّها مع رسوم أوليّة لها<sup>(٥)</sup>.



(د) لائحة بأسماء الباناغيا مع رسومها.  
 أ - بلاشيرينيتا: أصل الأيقونة من القسطنطينية، حاملة الطفل على الصلر. هي العذراء والعلامة (بحسب أشعيا ٧/١٤).  
 - بريفوكراتيتا: العذراء الحاملة للطفل.



ب - إيلوتسا: العذراء الشفوق.



ج - غالاكتروتروفوسا: العذراء المرضعة.



د - غليكوفيلتسا: العذراء التي تقبل بعدوية.



هـ - هاغيوسوريتيتا: العذراء الضارعة، ذات الزنار المقدس.



و - هوديجيتريا: يعود الأصل بحسب التقليد إلى القديس لوقا. تمثّل العذراء القائدة.



ز - كيريويتا: العذراء الواقة والطفل أمامها.

وتلج دير إيقيرون حيث نتظر في ردهة الاستقبال، فيسأل الصديق



٨ - العنراء صاحبة السلطان وذات الجلالة.



٩ - العنراء المصلية.



١٠ - العنراء المتألّمة.



١١ - يلاجونيتيسا: الأصل من منطقة يلاجونيا. الطفل يلهم بين يدي أمه.



١٢ - بيريلپتا: العنراء المُدهشة.



١٣ - بلاتيريا: الأعظم من السماوات.



١٤ - تريشيرشا: ذات الأيادي الثلاث.



١٥ - زودوكوس: ينبوع المعطي مياه الحياة.

أمين عن إرميا، أحد الرهبان قاطني الدير، وهو من الجنسية الأسترالية، وقد اختار التنسك منذ سنوات في جبل آتوس. وتوجه إلى الداخل فنزر الكنيسة وكنز المكتبة الملاصقة لها، ثم نعثر، بعد تنثيش، على الراهب إرميا الذي كان منهمكاً مع أقران في تلميح آية المذبح الرئيسي تحضيراً لعيد الباناغيا في الخامس عشر من شهر آب. تأهل بنا إرميا من دون أن يتوقف عن عمله وابتسم عندما قلنا له بأن صديقه في بيروت يبعث له بالسلام طالباً إليه الصلاة من أجله. وعندما طلبنا إليه المبيت في إيفيرون، توقف قليلاً للتذكير ثم أجاب بأن ذلك ممكن. ولما رأى أن الرهبان مستمرّون في أعمالهم، أسرع هو أيضاً في إكمال عمله، كما لو أنه أراد أن يقول لنا إن المقابلة انتهت وإن علينا تدير أمرنا لباقي النهار.

ونصعد ثانية إلى السيارة متوجهين إلى مقصدنا الرئيسي، دير لافرا<sup>(٦)</sup>، فنشاهد على طريقنا دير فيلرتيو ثم دير كاراكلور، يحضنتهما سفح جبل آتوس الذي أطلّ علينا فجأة بكامل مهابته وعلوّ الشاطئ القريب من البحر. ولا تتأخر في النزول من السيارة لمشاهدة قمة الجبل عن قرب، كما لو أنّ الجبل صار هو أيضاً محجّة ودير عبادة. كيف لا والمعروف أنّ في مغاور الجبل الكثير من المناسك التي يقطنها بعض الرهبان العباد المتوحدين الذين جعلوا من التقليد تراثاً حياً من العبادة والانخراط في الروح والصلاة المتواصلة.

وبعد أن تابعتنا سيرنا على طريق شقّت حديثاً للربط بين أديار جنوبي الأرخيل، شاهدنا فجأة دير ماكس لافرا يطلّ علينا في شكل مدينة مسوّرة إلى جانب الشاطئ. «إنّه الأجمل على ما يبدو بين أديار آتوس وقد أسسه القديس أثاناسيوس في السنة ٩٦٣، أيام حكم الإمبراطور نيفوروس فوكاس» على ما يقول الكتاب - الدليل الذي بين أيدينا. فهو يبدو كبلدة حصينة تمتد أسواره على أكثر من كيلومترين وله ثلاثة أبواب، وتجتازه

(٦) في السنة ١٩٦٣، جرت احتفالات مهمّة بمناسبة العيد الألفي لهذا الدير الذي تأسس العام ٩٦٣.

الأزقة والشوارع، ويحتوي على أكثر من ثلاثين كنيسة منها الكاثوليكون ذات القبة المتعددة التي تحمل من الداخل لوحات رسمها الرسام الشير تيوفانوس في القرن السادس عشر. في هذا الدير، أمضينا الليلة وشاركنا الرهبان حياتهم الديرية وصلواتهم، وكذلك مآكلهم في قاعة الطعام التي تزيّنها رسوم حققتها الفنانون الكريتيون في القرن السادس عشر أيضًا. ولا شك في أن هذه القاعة هي أجمل قاعات دير لافرا: فعندما شاركنا الرهبان في طعام المساء والصبح المؤلف من السمك النيء والحساء المطبوخ بالمياه وبعض الخضار والفاكهة والشاي، لاحظنا على الجدران الرئيسي لوحات العشاء السوي، وعلى الجدران الجانبية سلسلة من أيقونات القديسين كاثاسيوس وغرينوريوس بالماس والقديس يوحنا الإنجيلي، ومشاهد من مجمع نيقية وحياة العذراء، وعلى مدخل القاعة لوحات الدينونة الأخيرة ومجيء الرب ومختاري الفردوس وشجرة يسى. وبلغت انتباهنا وجود صور الفلاسفة اليونانيين أمثال: فيلون وفيثاغورس وسقراط وأرسطو وأفلاطون وغيرهم، وكأنّ الرهبان، في جزء من مسيرتهم الروحية العرفانية، هم أصدقاء الحكمة، لا بل من السعاة إليها وإلى الحقيقة. فحضور الفلسفة بينهم هو رمز إلى ذلك السعي، لا بل دعوة إلى التمسك بالسعي إلى الحقيقة الإلهية.

أما المبيت في الدير فإنه نوع من الالتزام بالحياة الديرية وطقوسها وأوقاتها: ففي المساء وبعد الصلاة نلتقي الرهبان الذين يتحدثون عن حياتهم والتزاماتهم النسكية، ونشعر كم أنهم يعيشون في العالم ويحملون همومه وهم يعيدون عنه جغرافيًا. ونسير مع أحدهم حول الدير إلى صومعة قرية منه ترهب فيها القديس أثناسيوس المؤسس، ورأى فيها نور الرب يدعو إلى الحياة التوحيدية التأملية. وتحقق بالتالي كم أنّ هذه الحياة، بتقاليدها وأزمته، هي حياة توحد بالرب يسوع، وشهادة على حضوره الحي في العالم، ودعوة إلى رؤية الأزمنة الجديدة والملوكوت الآتي، ملكوت السعادة الأبدية. فالحياة الديرية هنا ليست تقيض العالم، بل هي دعوة العالم إلى التخلي عن زيفه ومظاهره وتعلقه بالماديات، لكي ينظر

إلى ما هو جوهرِيّ وأساسيّ وحقيقيّ، المتمثّل بهذه الحرّيّة العميقة المعاني التي يعيشها المتوحّد في أديار آثوس ومناسكه البسيطة.

وعند الرابعة صباحًا، يتمّ دقّ الناقوس الخشبيّ ليفيق الجميع فيتجمّعوا في بهو الكنيسة للصلاة حتّى السادسة صباحًا موعد تناول الطعام. وبعد أن انتهت المراسم الطقسيّة الصباحيّة، عدنا إلى غرفتنا البسيطة للملّمة أغراضنا ولإكمال حجّتنا إلى آثوس. ولم نسنّ قبل خروجنا من بيت المتامة أن نقرأ لمرّة أخيرة النظام الداخليّ المثبت على مساحة الباب الداخليّة، وهو قد كتب باللغة الإنكليزيّة:

«إنّ هذا المكان الذي قاد الله خطاك إليه هو مكان مخصّص للعبادة، فلا تدخّن ضمن جدرانها،

وعليك أن تحافظ فيه على اللباس المحتشم حتّى ولو كنت في غرفة المنامة،

وإنّها فرصة وهبك الربّ إيّاها للمشاركة منذ البداية في الخدمة الإلهيّة،

إذا كنت غير أرثوذكسيّ، فلفظًا امكث في الجزء الخلفيّ للكنيسة بعد الإنجيل المقدّس، ولا تتناول الجسد المقدّس، والقمع المبارك. لا تترك مالاّ في الغرفة، والضيافة لا تتجاوز الأربع والعشرين ساعة».

هذا يعني أنّ الأرض التي تسير عليها هي أرض قلب الأرثوذكسيّة الزوحيّ، وعليك أن تحترم قواعد التعامل والضيافة كما سنّها رهبان الدير وسلطات الجبل المقدّس.

ونتقلّ من دير ماكس لافرا التاريخيّ إلى إيثيرون ثانية، ثمّ نزور دير ستافرونيكيّا القريب منه الذي بني مرّة أولى في القرن الحادي عشر، ثمّ بعد دماره بُنيّ ثانية في القرن السادس عشر بيوثة البطريك المسكونيّ الجالس على كرسيّ القسطنطينيّة والذي تخضع له كلّ أديرة الجبل المقدّس. الكاثوليكون هو شبيه غيره من كنائس الأديار، إلّا أنّ ما يميّزه

هو الرسومات التي رسمها الفنان تيوفانوس القريطي، مؤسس المدرسة القريطية. في هذا الدير، درس المطران جورج أبو زخم، أسقف مدينة حمص الأرثوذكسي الحالي. ودير ستافرونيكيثا يُعدُّ مركزاً مهماً للنهضة الروحية التي شهدتها وتشهدها أدبرة الجبل المقدس. إلتقينا في هذا الدير الذي يعجّ بالعاملين على ترميمه الراهب يكوْفوس من التابعة الفرنسية الذي حدّثنا عن النهضة الروحية التي يقودها دير ستافرونيكيثا: «الحياة الديرية الأرثوذكسية هي في جوهرها تأملية تهدف إلى الاتحاد بأسمى قيم الإنجيل، وشخص المسيح وعيش القيامة المُسبقة، عبر العبادة والليترجيا المصلية والإفخارستية. والعزلة في هذا الجبل المقدس، واستثناء الحضور النسائي، والانقطاع عن العالم الخارجي، وتثبيت استقلالية منطقة الجبل المقدس في شكل دولة لها نظامها الخاص ضمن الدولة اليونانية، هي أمور أساسية لإتاحة المجال لمريدي الحياة النسيكية في أن يختبروا الاختبار الحرّ، غير المقيد بأحوال العالم المتقلّبة، حياة الوحدة المؤدية إلى حالة التوحد الداخلي للاتحاد بالربّ خالق العالمين. حالة العزلة الرهبانية والتوحد الباطني يقودان المتوحد الراهب إلى حالة هي أشبه بحالة الإنسان وقت خُلِقَ على شبه الله ومثاله، بحالة النقاء الأولى، وهي بوجه أكيد حالة الإنسان المتصّر على الموت بقوة الصليب وقيامته». ويتابع محدّثنا قائلاً: «إنّ عناصر الحياة الروحية، أي العزلة والوحدة والصلاة والتحقّف الجسديّ القاسي وتبعية كلّ راهب، ضمن حرّية روحية محدودة، لدير معيّن، هي العناصر الأساسية المستمرة منذ مئات السنين، والنهضة الروحية تعيد الاعتبار لهذه العناصر، كونها كانت الأدوات الناجحة الناجمة لاستقامة الحياة الروحية».

وننتقل من هذا الدير إلى العاصمة كاريس مرّة أخرى، فنرتاح قليلاً من غبار الطريق ونستعدّ للانتقال إلى دير آخر، بعد زيارة كنيسة القديس أندراوس زيارةً سريعة. وفي كاريس، استقلينا السيّارة إلى دفني حيث حجزنا المبيت في الفندق المتواضع، وتابعنا سيرنا إلى دير سيمونوس بيترا الذي كان حدّثنا عنه بعض العارفين في أمور الجبل المقدس، كمثال للدير

الشاهد على الحياة الرهبانية المتجددة. فدير سيمونوس بيترا، العالق بين الأرض والسماء على صخرة جرفٍ يشرف على البحر الأزرق اللأزوردِّي، أسسه راهب اسمه سمعان في القرن الرابع عشر. ورؤية الدير من البحر تبيّن للناظر كم أنّ بناءه تطلّب الكثير من الإقدام والشجاعة، وأنّه مؤلّف من ثلاثة أبنية (ويتمّ اليوم تشييد بناء رابع لإيواء الحجاج وإبعادهم عن الرهبان الذين يحتاجون إلى السكينة) وأنّ كلّ بناء مؤلّف من سبعة طوابق. يقطن الدير أو يتبع له مئة وعشرون راهبًا على الأقل، ولم يمنعه الحريق الذي أتى على جزء كبير منه في السنة ١٨٩١، ثمّ في السنة ١٩٩٠، من التجدّد وإعادة بناء ما تهدّم، وتكوين جوقة ترتيل ليرجّي تعتبر الأهم، إلى جانب جوقة الدير الروسي ودير فاتويايدي، بين جوقات أديرة الجبل المقدّس. وبالفعل فإنّ هذا الخورس له تسجيلات ليرجّية متعدّدة متشرة في أربعة أقطار المسكوتة، وهي تُظهر أنّ التجدّد لا يطال الحياة الروحية وحسب، بل الليتارجيا الإنشادية البيزنطية التي تساهم في نقل المرتل والمستمع إلى عالم الإلهيات الروحاني<sup>(٧)</sup>.

وندخل دير سيمونوس بيترا (أي سمعان الصخرة) فنتنظر قليلاً أحد الرهبان، وهو في الأساس طبيب فونسي،..علمنا من بيروت أنّه من المترهّين في هذا الدير. ولم يظل الوقت حتّى أطلّ الراهب مكاريوس بجسمه النحيل وعينه المتلاشتين وقبعته البسيطة التي تغطّي الرأس والجبين. بصوت خافت، ألقى السلام ودعانا إلى تناول قليل من الراكبي (المرادف للعرق اللبناي) وراحة الحلقوم والقهوة. وعندما علم أنّنا من بيروت نقل إلى السلام من أحد الكهنة الذين ترقيبوا لسنة واحدة في سيمونوس بيترا، تهلّل وجهه وشعرنا بقرنا إليه، وأخذنا نطرح عليه الأسئلة عن الحياة الرهبانية في الجبل المقدّس. قال لنا ردّاً على سؤال: «الصيغة الرهبانية المعتمدة اليوم في أديار آثوس هي بالإجمال الحياة

(٧) هذه التراتيل مسجلة على أقراص مضغوطة وكاسيتات، وهي متوافرة في بعض المكتبات الدينية في أثينا، ولا شك في أنّ المستمع المنترق العارف بالإنشاد البيزنطيّ يستحسن سماعها.

الجماعية. يجب ألا نتوقف كثيرًا على ما تقوله بعض الكتب في وصف أديار آتوس من أن بعضها يتبع الصيغة الإفرادية، بحيث إن كل راهب ينظم حياته كما يشاء، وأن بعضها الآخر يتبع الصيغة الجماعية التي يتظم جميع الرهبان تحت لوائها. الواقع أن الحياة الديرية هي في الأساس حياة ديرية وأن الراهب قد يختار، بالتوافق مع رئيسه، الحياة في دير صغير تعيش فيه جماعة صغيرة مكونة من ثلاثة أو أربعة أو خمسة أشخاص. بعض الرهبان هم تناسك في الجبل، متوحدون، وهذا جزء من الحياة الرهبانية. لذلك، إلى جانب الأديرة الرئيسية العشرين في الجبل المقدس، تنتشر العشرات من تجمعات الأديرة الصغيرة (سقيتي نسبة إلى الإسقيط في مصر<sup>(أ)</sup>) التي تأوي الكثير من الرهبان الذين يؤلفون جماعات مصلية، وهم يعملون غالبًا، في الزراعة أو في رسم الأيقونات أو صنع المسابح. فالراهب، أينما كان، يعيش يومه في ثلاث حلقات: الحلقة الأولى هي للصلاة وهي من ثماني ساعات، منها ما هو مكرس للصلاة الجماعية ومنها ما هو مخصص للصلاة العقلية التأملية الإفرادية؛ والحلقة الثانية هي العمل من أجل العيش وهي من ثماني ساعات أيضًا؛ والحلقة الثالثة هي من ثماني ساعات أيضًا ومن حصّة النوم والإخلاق للراحة، بالرغم من أن بعض الرهبان ليسوا بحاجة إلى كل هذا الوقت للراحة. والإسقيط مؤلف من ثمانية أو عشرة منازل (كاليباي باليونانية). في كل منزل أربع أو خمس غرف وكنيسة عبادة، وللمنزل رئيس يستطيع أن يقبل عنده المبتدئين. والرئيس هو الأب الروحي للجماعة، يدير شؤونها المادية والروحية وله أن يقدر مسيرة كل واحد من الرهبان بوجه إفرادي، ولذلك قيل إن إحدى صيغتي الحياة الرهبانية هي الصيغة الإفرادية (Idiorythmique). والواقع أن ساكني المنازل يلتقون يوم الأحد في كنيسة رئيسية للاحتفال بالليترجيا الإفاخرستية، وقد يلتقون أيضًا حول مائدة واحدة.

(أ) هي منطقة وادي النظرون القبطية حاليًا وفيها دير السرمان، ودير الأنبا يشوي ودير الأنبا مقار ودير الباراموس. وأن يطلق على تجمع الأديار اسم إسقيط في جبل آتوس ذلك يعبر عن العلاقات التي نُسجت دومًا بين معطي الحياة الرهبانية.

ويشأن الطرق الأخرى للحياة الرهبانية، يقول محدثنا الراهب مكاروريوس: «إن بعض الرهبان يعيشون حياة نسكية في القلاوي التي غالبًا ما تحوطها الأراضي الزراعية أو المنشآت الخاصة بصيد الأسماك. أما النساك المتوحدون فهم يعيشون في بيوت خاصة (Katismata) أو في المغارر وشقوق الصخور، وهذه صيغة تتطلب التقشف الشديد والقدرة على تحمل الأصوام الكثيرة والعزلة التامة عن البشر».

### الروحانية النسكية، السكينة من أجل الواحد الأحد

ويتابع محدثنا قائلًا: «أما ما يقصده المتوحد، في أي صيغة من هذه الصيغ فهو السكينة، أي السلام الداخلي أو الهدوء الباطني أو حالة اللافعال إزاء الأحداث الخارجية».

«هذه السكينة (Hésychia) هي السكينة الجسدية أولاً، وهي جوهرية حالة الانفصال عن العالم وبخاصة عن الأهواء العارمية، وقد تكلم عليها الكثير من الآباء الروحانيين، أولهم إسحق النينوي (في القرن السابع). فالأهواء هي في الإنسان، وللانقطاع عن العالم والأهواء لا بد من الانفصال عن الناس. الراهب ينقطع عن الناس وعن العالم، إلا أن الناسك من شأنه أن يقوم بذلك جذريًا فيعيش متوحدًا متقشفًا زاهدًا لكي ينسى جسده. والسكينة هي أيضًا السكينة النفسية الباطنية وهي في صلب الروحانية الشرقية، وقد أعاد إليها القديس غريغوريوس بالاماس الاعتبار في القرن الرابع عشر. إنها صفاء النفس ونقاوتها والصلاة المستديرة والاتحاد بالمسيح. في الدير الأنوسبي، لا تشغل بالأمر العقلي أو العقائدي أو الفكرية إلا قليلًا، لأن ما نبيه هو هذه السكينة وصفاء النفس للاتحاد روحياً بالمسيح، كي نكون رسولين عبر دعوتنا هذه، وذلك ما تسعى إليه، لأن الروح القدس هو الشاهد على ما يقوم به الراهب من أعمال مختلفة، أروحية كانت أم مادية. الراهب في الجبل المقدس يحمل في قلبه وكيانه الرغبة في أن يكون متجليًا في تجلي الرب».

ويعد أن سمح لنا الأب مكاروريوس بأن نلتقط لنا الصورة التذكارية

معه، بالرغم من أن ذلك ليس محببًا في آثوس، غادرنا دير سيمونوس پيترا من دون أن ننسى المرور بكنيسة الدير للصلاة وإضاءة الشموع. حملنا كلمات الأب مكاربيوس ومشاهد البحر الأزرق التي انطبعت في ذاكرتنا من شرفة الطابق الخامس، وقررنا السير على أقدامنا باتجاه دير القديس بندليمون، عبر الطريق الترابية والأحراج.

وفي الطريق، شاهدنا أحد الرهبان يحمل حوائجه على ظهره وبين يديه، فتذكرت أنه قد يكون من جماعة الرهبان الدوّارين الذين اختاروا عدم الاستقرار ونمط الانتقال من دير إلى آخر بصورة مستمرة، وهم إنمّا يقومون بذلك عملاً بقول السيّد المسيح: «إنّه لم يكن له وسادة يضع عليها رأسه»، وهم كذلك مثال الفقير الذي يشحذ كسرة الخبز ليأكل.

### في دير القديس بندليمون

بعد ساعة من السير وصلنا إلى محيط الدير الروسي، وقد تفاجأنا بعدد الأبنية الخربة أو التي التهمها الحريق. إلّا أنّ ما يلفت النظر أيضًا هو اتّساع أعمال الترميم في أبنية أخرى من مجمّع الدير، وذلك يعود إلى أنّ التحوّلات في روسيا منذ عشر سنوات دفعت العديد من الشبان الروس والسلاقيين إلى الالتحاق بالحياة الرهبانية. وفي الواقع قال لنا أحد الرهبان إنّ الحقبة الحالية من حياة الدير هي حقبة نهضة روحية وتجدد واستقبال لعدد من الشبان الذين ينشدون السكينة والانقطاع عن العالم.

ونصعد الدرجات إلى الكنيسة فترى أكبر جرس بين أجراس أديار الجبل المقدّس، لا بل واحدًا من أكبر الأجراس في العالم، إذ يزن ثلاثة عشر طنًا بقطر يبلغ ثمانية أمتار وسبعين سنتيمترًا. أمّا ما يُسبّب الأذهان وسحر الأذهان دخول الكنيسة فهو عظمة الإنشاد الليتورجيّ الروسيّ الذي سترنا في أمكتنا بين الصلبان والأيقونات طوال ساعتين من الوقت، شاركنا فيها روحياً الخورس الذي كان يرتل صلاة المساء.

وقفنا عائدتين على الطريق نفسها نحو مرفأ دفني مرورًا بدير كوتلوموسيو للخلود إلى السكينة والراحة في غرف الفندق المتواضعة.

وفي اليوم التالي، عند الساعة الثانية عشرة كُنّا متأهبين للصعود إلى السفينة التي أفلتتا هذه المرّة في رحلة العودة إلى مرفأ أورانبوليس، حاملين معنا ذكريات لا تنسى من سياحتنا الروحية في الجبل المقدّس. تقوم الباخرة - العبارة بالمهمّة نفسها بين دير وآخر، تُنزل ركابًا وتستقبل جُددًا من الرهبان والعلمانيين الزائرين والعاملين في الجبل، وقد زادت هذه المرّة حمولتها من السيّارات المتوسطة والكبيرة المحمّلة بالأخشاب من أحجام مختلفة ومن المتوجّات المحليّة. وفي أثناء الرحلة، رافقتنا طيور القَطْرُس البيض التي تسعى إلى المأكّل من أيدي المسافرين.

ومن تسالونيكى ذهبنا في اليوم التالي غربًا إلى منطقة أخرى شهيرة بأديارها المعلّقة على رؤوس قمم جبال بركانية قديمة في وسط اليونان هي منطقة متيورا. وفي الطريق توقّفنا لرؤية آثار فرجين الملكيّة وخصوصًا مدفن الملك فيليب الثاني، والد الإسكندر المقدونيّ الكبير الذي مات مقتولًا في القرن الرابع قبل المسيح. وبعد أن شاهدنا أعالي جبال الأولمب التي تتطنها آلهة الأولمب المتعدّدة مثل: زوس وهيرا وبوزايدن وأبولون وأفروديت وأرتميس... وكانت في ذلك الوقت في حالة عاصفة بعض الشيء. وقصدنا المنطقة الشهيرة بمعابدها اليونانية والرومانية، حيث شاهدنا قصر ديونيزوس والمسرح الرومانيّ والمتحف الذي يحتوي على أرغن موسيقى يتمّ تشغيله بقوة الماء، وهو من القرن الثاني قبل المسيح.

وبعد أن طويّنا صفحة الآثار الوثنيّة، وصلنا سريعًا إلى بلدة كلمبكا التي تُعتبر القاعدة اللوجستية للسياح في منطقة متيورا. ما يلفت النظر عند الوصول إلى بوابة كلمبكا هو تلك الصخور الجسيمة السود وكأنّها نيازك ضخمة قد سقطت من السماء تُتزرّع في الأرض زرعًا. إنّها صخور تداخلتها المعادن بوجه أساسي، فبانت كأنّها الأصابع المارّدة التي قصد رؤوسها النساك والعباد المسيحيّون لينوا عليها مناسكهم بعيدًا عن ضجيج الناس وضوضاء المدينة، كما فعل النساك في جبل آثوس. إلّا أنّ الحركة السياحيّة منذ بداية السبعينيّات، وجدت في الأديار المبنية على رؤوس

الأصابع ضالَّتْها الفريدة، فأصبحت منطقة متيورا محطة رئيسية للسياح يقصدونها من أثينا مرورًا بمدينة دلفي وهاكلها الوثنية.

إشتهرت منطقة متيورا منذ القرن الرابع بعد المسيح مقرًا للكثير من الذين أرادوا الانعزال والترهب. فأتوا إليها ليسكنوا في مخابئها والمغاور، وعلى رؤوس صخورها الماردة، وكأنهم ورثة العموديين الذين كانوا يمضون حياتهم على رأس العمود حربًا من البشر. وكان الرهبان القاطنون يلتقون للصلاة الجماعية والعبادة وإقامة الإفخارستيا والاسترشاد المتبادل حتى القرن الرابع عشر، الذي شهد بداية بناء الأديار فوق تلك التعمم العالية التي لا يصل إليها البشر إلا بمشقة كبيرة. ولا شك في أن بناء الأديار تطلب الكثير من التضحيات وكأنه عمل تقشفي بحد ذاته، إذ إن الناظر اليوم إلى الأديار المعلقة بين الأرض والسماء لا بد له أن يقول في نفسه: لو لم يكن الرب معهم، لما استطاع البناء أن يبني البيت.

وفي منطقة الأديار المعلقة، وكل دير منها يقارع الآخر بمساحته الواسعة وطوابقه المتعددة، أحصينا سبعة أديار لها مكائنها ودورها التاريخي في الحياة الرهبانية:

- دير الروسانو القابع على إحدى الأصابع تأسس في السنة 1045م على يد الأخوة يوحنا ومكسيموس ويواصان وقد وضعوا الحياة الجماعية فوق كل اعتبار، إذ سئوا لها نظامًا صارمًا يحد من أي تعبير عن «الأنا»، وهي المكان الذي يستطيع الشَّير أن يتغلغل فيه أكثر من أي مكان آخر. وفي الدير اليوم، راهبتان تحاولان تجديد الحياة الرهبانية النسائية فيه. وما تجدر الإشارة إليه أن بين أديرة متيورا، خصص ديران للراهبات والخمسة الباقية هي للرجال.

- دير هاغيا ترياس (الثالوث المقدس) يقوم على إحدى القمم الواسعة بعض الشيء، إلا أن الوصول إليه كباقي الأديرة، لم يكن يتم إلا بالحبال والقنف، واليوم يمكن الوصول إليه عن طريق القطار السلكي المعلق. وإذا نعرف أسماء مؤسسيه، نستطيع تحديد بنائه بين نهاية القرن

الثالث عشر وبداية الرابع عشر. وزيارة الدير ممكنة عبر مئة وأربعين من الدرجات تصل مباشرة إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان التي تحمل على جدرانها الرسوم من القرن السابع عشر. والحياة الرهبانية حية فيه، إذ يسكن الدير عشرة رهبان.

- دير هاغيوس ستيفانوس تقطنه الراهبات، وهو إلى حد ما لم يبنَ على رأس إصبع بين الأرض والسماء، بل على صخرة كبيرة مشرفة على بلدة كلبكا ترتبط بالجبل بواسطة جسر حديث. شُيّد الدير في القرن الثاني عشر، وكان يحمل اسم الدير الملوكتي، إذ إن ملوك اليونان كانوا يخصّونه دومًا بالأيقونات الثمينة والهدايا القيّمة، وقد بقي منها حاجز الأيقونات الخشبيّ الصنع والمرصع بالذهب الخالص في كنيسة القديس إسطفانوس المزيّنة بالرسومات المحقّقة في القرن السابع عشر، وقد تضرّرت كثيرًا بفعل القصف إبان الحرب العالميّة الثانية.

- أمّا دير فارلام، وهو الدير الأوّل الذي بُنيّ في متيورا، فهو عظيم في بنائه وحنده. الوصول إليه يتمّ عبر سلّم حديث العهد من ١٩٥ درجة حُفر في الصخر. الكاثوليكون يحمل على جدرانه مجموعة فريدة من الرسوم التي حقّقها المعلّم كاستيلانوس بتأثير من المدرسة القريّية والإيطاليّة على حدّ سواء. أمّا الكنيسة الأخرى، التي تحمل اسم «المسلّطين الثلاثة» فهي الأولى التي شُيّدت في متيورا.

- دير متيورا الكبير بناه القديس أثاناسيوس في القرن الرابع عشر وقد وصل عدد رهبانه في مرحلة معيّنة من القرن السادس عشر إلى أكثر من ثلاث مئة راهب، في حين أنّ عشرة رهبان اليوم يهتمون بإدارته. وقد علمنا من أحد الرهبان أنّ لأديرة متيورا أديرة تابعة لها في جبل آثوس، وغالبًا ما يختار الرهبان الرحيل إلى هناك هربًا من مدّ الساتحين، ويبقى في أديرة المتيورا قلّة من الرهبان لكي يهتموا بأمرها. ونظرًا إلى أنّ دخول أديرة المتيورا ليس مجانيًا، فإنّ المداخيل توظّف في تمويل أديرة آثوس التي لا مداخيل لها إلا القليل. وبعد تسلّق السلّم المؤلّف من ١٤٦ درجة، نصل إلى الكاثوليكون الذي بُنيّ في السنة ١٣٨٨، وقد زُيّن جدرانه

بالرسوم تلامذة تابعون لمدرسة تاوفانيوس القريتي.

- أما دير هيباتي (تقدمة المسيح إلى الهيكل) الواقع إني يسار دير متيورا الكبير، فقد أسسه الراهب نيلوس في نهاية القرن الرابع عشر على إصبع من أصابع المتيورا، إلا أنه اليوم في حالة خراب بعد أن شهد مرحلة طوبلة من الازدهار حتى نهاية القرن الثامن عشر.

- ونختم زيارتنا أديرة متيورا بدير هاغيوس نيكولاوس أنابوساس الذي يتميز بعلوه الشاهق، وكذلك بالرسوم التي حَقَّقَتها يد المعلم تاوفانيوس القريتي، وهي الوحيدة التي تحمل توقيع المعلم في اليونان كلها. في هذا الدير، لاحظنا وجود رسم لرقاد القديس أفرام السرياني.

وبعد زيارتنا أديرة متيورا التي غصت طرقاتها بالسيّاح الآتين من كلّ حذب وصوب، يهدّد أسس الحياة الرهبانية، انتقلنا في اليوم التالي إلى بلدة دلفي لزيارة هيكلها ومعابدها ومتحفها، وقد دام عزّ دلفي لأكثر من ألف سنة (من العام ١٠٠٠ قبل المسيح إلى القرن الأوّل بعد المسيح)، حيث كانت العرافة تقوم بالتنبؤ بمستقبل الناس العاديين وكذلك الملوك والأباطرة. ومن بلدة دلفي، علمنا بوجود دير أرثوذكسي له تاريخه وموقعه المميّزان، هو دير هوسبوس لوكاس.

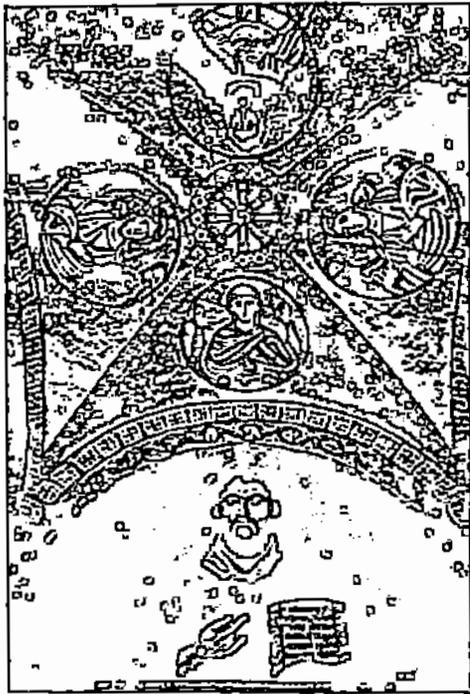
### دير هوسبوس لوكاس، رمز القرن البيزنطيّ الباقي

في قلب الطبيعة اليونانية الخلّابة في جبل هيلكون، يقع دير القديس هوسبوس لوكاس على بعد ١٧٠ كيلومتراً من مدينة أثينا. بنى الدير القديس لوكاس في السنة ٩٣٧ (وهو غير لوقا الإنجيلي)، فشيّد أولاً كنيسة القديسة برباره ثمّ كنيسة العذراء في منتصف القرن العاشر. وبعد وفاته ازدهرت الجماعة الرهبانية الديرية، وانتشر اسم القديس لوكاس في المنطقة كلها، ممّا دفع الرهبان إلى تشيّد كنيسة على اسمه، وهي الكنيسة الرئيسية في الدير وقد تمّ بناؤها في بداية القرن الحادي عشر. وممّا تميّز به هذه الكنيسة عن سواها كثرة الرسوم الجدارية بالموزايك والمرصعة

بالذهب، وهي تذكر بعظمة الفن البيزنطي الذي كان سائدًا في القسطنطينية وكنائسها. فمن الرسوم المهمة، وجه المسيح القوي وهو يحمل بيديه إنجيلًا مفتوحًا، ولوحة الصليب التي تجمع المسيح يسوع وأمه مريم والتلميذ يوحنا في إطار جوف مغمم بالحزن والألم. ولا ننسى التوقف على لوحة غسل الأرجل، وفيها وجه بطرس المقاوم لما يقوم به يسوع، وكذلك تتوقف على نزول يسوع إلى اليمبوس بعد قيامته. ونشاهد أيضًا موزايك توما الشكاك في حين أنّ المسيح الضابط الكلّ مقيم في سقف القبة الرئيسية (وهي لوحة جديدة بعد أن خربت الأساسية في هزة أرضية) وكأنه ضابط برنامج مئات الأيقونات المحققة في الكنيسة.

والواقع أنّ ما نراه في كنيسة القديس لوكاس من عجائب الأيقونات إنّما هو جزء من «النهضة الفنية المقدونية» التي أتت بعد أزمة الأيقونات في القرن الثامن، وهو تعبير حسي رفيع ونادر عن العصر الذهبي الثاني في الفن البيزنطي، في حين أنّ الأول كان أيام يوستينانوس الإمبراطور في القرن السادس. والواقع أيضًا أنّ ما كان محققًا من لوحات ورسوم في كنيسة أبا صوفيا في القسطنطينية من العصر الثاني، وهو شبيه ما نراه في هوسيوس لوكاس. فالأشخاص يلتحنون الأقمشة، والوجوه لها ميزاتها وخصائصها، والألوان متناسقة ببيّة، كلّ ذلك هو من خصائص العصر الذهبي الثاني في الفن البيزنطي. وإذا كانت الوجوه واجمة بعض الشيء في هوسيوس لوكاس، فمرّة ذلك إلى تأثير الطبيعة الرهبانية الصرف في الفن.

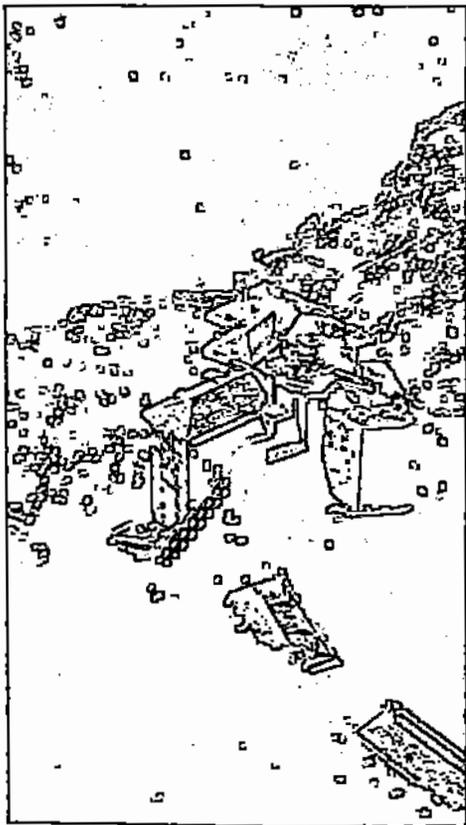
ونتقل بعد زيارتنا هذا الدير البديع بجماليات لوحاته وغناها الروحي إلى المدينة العاصمة، إلى أثينا الغنية هي الأخرى بترائيا وحضارتها. إلا أنّ ما بقي في الأذهان والوجدان هو تلك القوّة الروحية التي تزخر بها أديرة اليونان، لما تحمل من إيمان وتعبّد ونقاء وصفاء. إنّها استمرار لنقاء الإنجيل وصفائه.



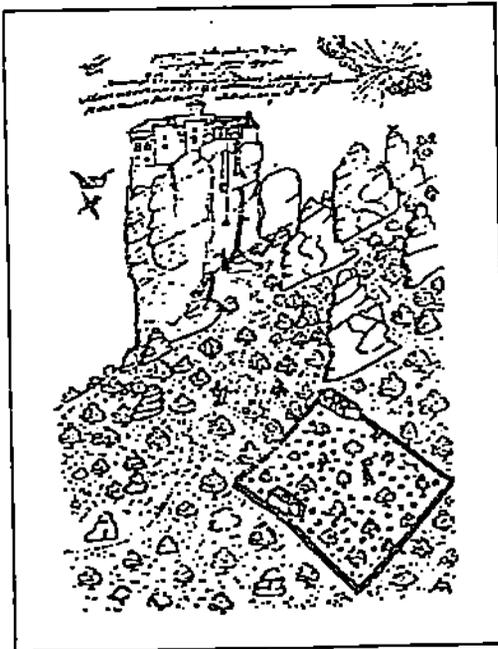
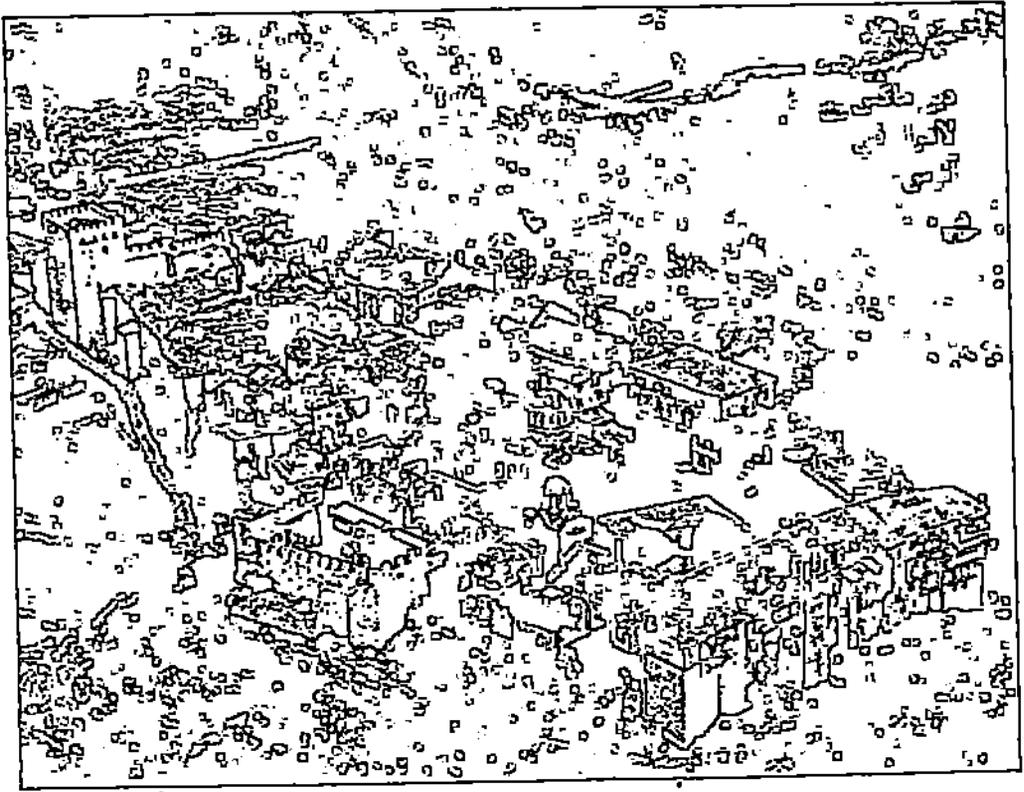
السيد المسيح الضابط الكل، العذراء مريم  
والقدّيس يوحنا الإنجيلي في قبة كيسة دوسيريس  
لوكاس.



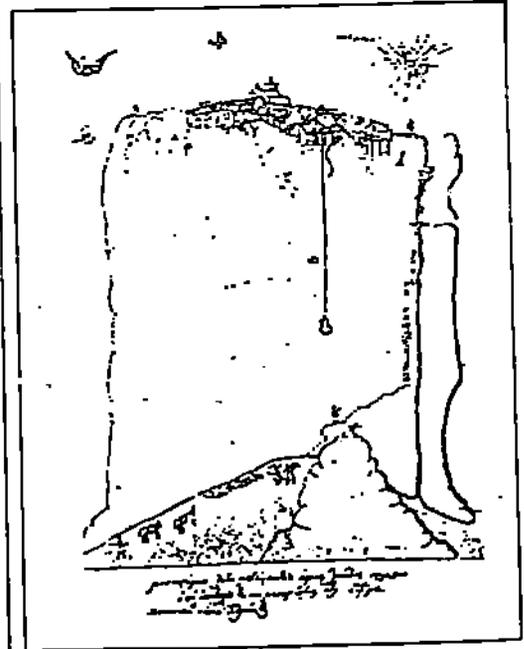
مناسك في صخور تيورا.



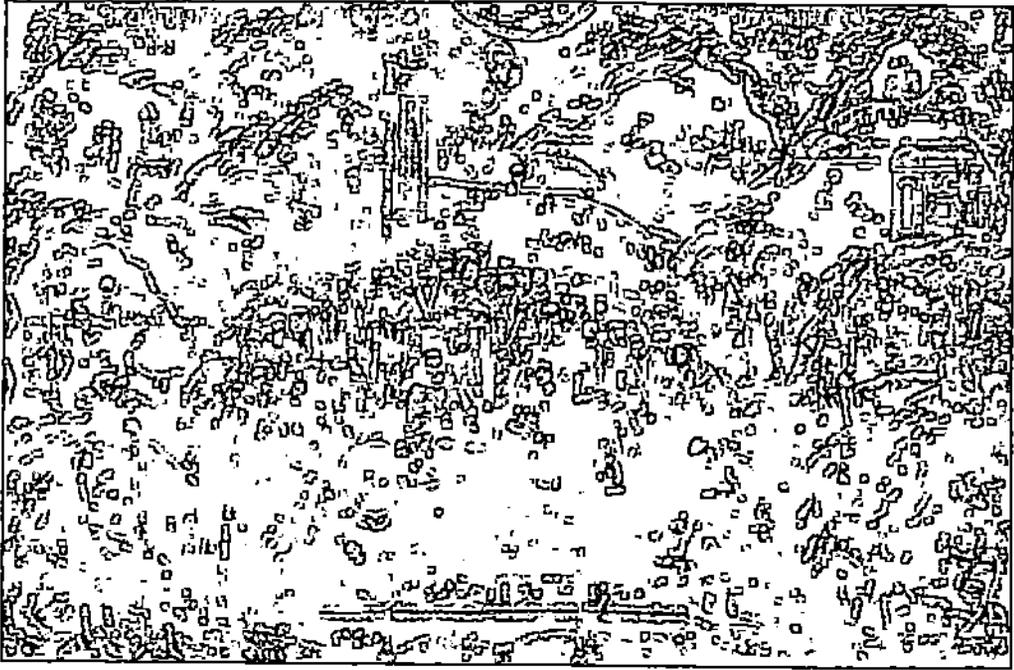
دير سيمونوس پيتر في أنوس.



على قمة الأنف، دير الروماتو.



الصعود إلى دير الثالوث المقدس... بالقفّة.



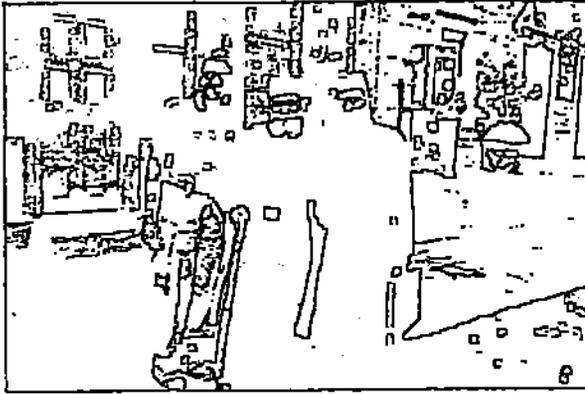
رقاد القديس أنرام في متيورا (من السنة ١٣٣٧).



دير ذوهاريو في أنوس.



خريطة آتوس وأدياره العشرين.



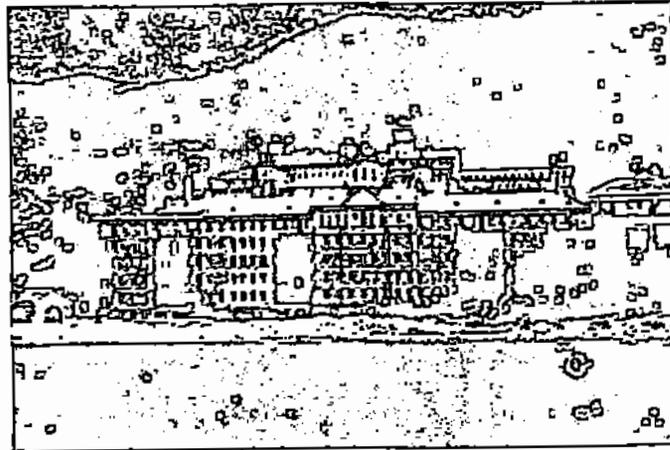
الأستاذ أمين خوري  
إلى جانب الأنا باولو  
- الشارع الرئيسي في  
كارييس.



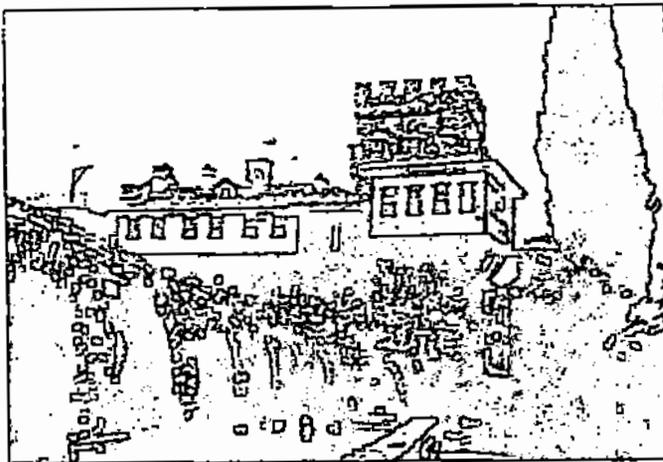
دير القديس نيكولاس  
- متورا.



دير الثالث  
المنذس على  
صخور متيورا.

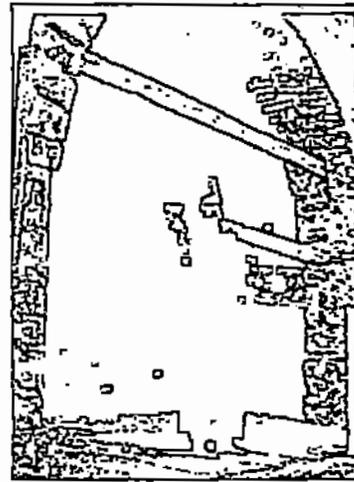
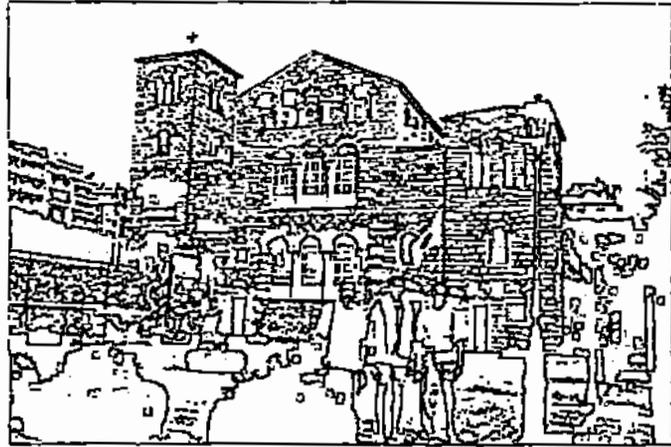


دير القديس  
بنتليمون  
الروسي على  
شاطئ آتوس.



جانب من  
دير ماكس  
لافرا - آتوس.

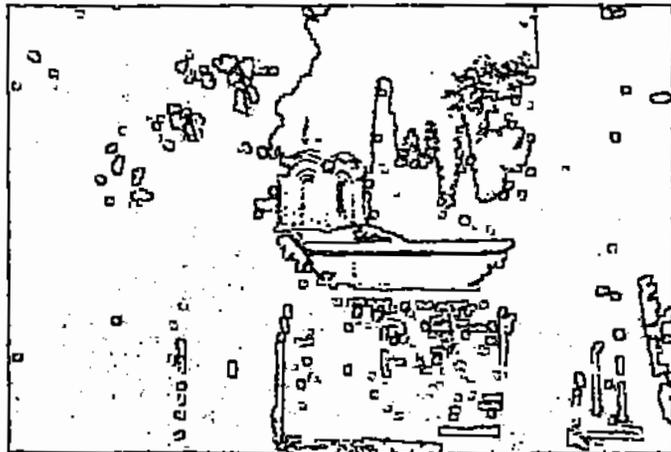
واجهة كنيسة القديس  
ديمتريوس -  
تالونيكي .



قرب الجرس، دعوة إلى الصلاة.

كاتب المقال إلى جانب الأب مكاريوس  
في دير سيمنوس بيثرا - أثوس .

مدخل كنيسة  
القديس بولس  
- تالونيكي .



من منشورات دار المشرق

